١٠ مشايخ لا مؤاخذة ..!!

في بداية القرن العشرين ظهرت في مصر حركات متعددة للإصلاح الاجتماعي، تصور بعضها أن الإصلاح لن يتم إلا بتحرير الوطن من مستعمريه، وتصور البعض الآخر أن الاستعمار لن ينتهي إلا بالخلاص من القلة المندسة من العملاء الموالين للاستعمار، وفريق آخر تزعمه الشيخ محمد عبده والذي أيقن أن ثمة نوعان للإصلاح أحدهما براني يتحدد في الخلاص من المستعمر والآخر جواني يتمثل في دولة القيم والأخلاق. فمصر لن تتحرر إلا إذا تحرر أبنائها من سلبيتهم، ولن يتخلصوا من الاستعمار إلا إذا تخلصوا من الأنانية المفرطة، التي كثيرًا ما تقدم مصلحة الذات على صالح الوطن. وهنا حدد محمد عبده بذكاء دور رجال الدين في السياسة من خلال خلق الإيجابية في نفوس الشعب، وبناء وتقوية الأنساق القيمية التي هدمها المستعمر في ضمائر الشعوب..ولم يقحم محمد عبده دعاة الدين في اللعبة القذرة التي كثيرًا ما تلوث من يمارسها؛ قناعة منه بمقولة الشافعي، أن من ارتاد العمل العام فليتصدق ببعض من عرضه. وحرصًا من الإمام على أعراض مشايخنا – لكونهم القدوة والنموذج في بناء الأمة – فقد نأى برجال الدين عن الدخول في دهاليز السياسة. تلك اللعبة التي لم يختلف في تعريفها فلاسفة الإسلام أمثال الإمامين الفارابي والغزالي عن فلاسفة الغرب أمثال مكيافيلي وجان جاك روسو وتوماس هوبز، الذين عرفوا السياسة بأنها اللعبة القذرة التي تقوم

على المكر والدهاء والخديعة. فإذا كان مكيافيلي قد أخذت عليه مقولته المشهورة «الغاية تبرر الوسيلة» فقد أفرزت تجارب وضمائر الشعوب العربية المثل الشعبي «اللي تغلب به إلعب به» مما يؤكد خلو هذه اللعبة من الأخلاق التي يُعَد رجال الدين هم دعاتها. فكيف يدعون إلى الأخلاق ويمارسون الخديعة حسب مفهوم السياسة؟ وأن استخدم الدعاة الأخلاق في ممارساتهم للسياسة؛ فربما يكون استخدامها معول هدم وهزيمة؛ فليس من الذكاء أن تستخدم أخلاق الفرسان على طاولة اللئام. وهل في صالح الدعوة أن يكون للعامة نصيب في أعراض الدعاة؟ وهل في صالح الوطن أن تستباح أعراض رجال الدين فيه؟

فها نحن بعد الثورة يطل علينا دعاة للدين كان قد عَدَهم الشعب قدوة ونموذج، وها هم قد دخلوا عالم السياسة وتاهوا في دهاليزها وانشغلوا بألاعيبها، واستغلوا قبولهم الدعوي فأسسوا أحزابًا ودشنوا قنواتًا فضائية، وانشغلوا عن بناء القيم وتجويد الأخلاق ببناء الأحزاب وإنجاح البرامج؛ فجعلوا المواطن حائرًا بين دعاة الدين ورجال السياسة، في ظرف تاريخي عصيب تشرذمت فيه قيم الشباب وأخلاق العامة، وبات الوطن أحوج إلى إعادة بناء منظومة القيم عن حاجته لبناء منظومة السياسة.

ولم يأتِ مقالي هذا دفاعًا عن الفنانة التي نال مشايخنا عبر الفضائيات كثيرًا من عرضها، متناسين أنها امرأة وأنها مسلمة. وإنما جاء حسرة على ما وصل إليه رجال ديننا الحنيف، الذين تناسوا تعاليم الدين التي تشين تتبع عورات الناس وأن من تتبعها تتبع الله عورته. وأن من ستر مؤمنًا ستره الله يوم القيامة، وأن الخوض في ذمم الناس كالخوض في أعراضهم.

فما أحوج مشايخنا اليوم إلى الأخذ بمنهج الإمام محمد عبده في الإصلاح، ذلك المنهج النموذج الذي تحاكت عنه أباطرة السياسة في الغرب، نموذج أساسه القيم، فلن تنهض مصر إلا بأخلاق أبنائها، وكل ما تعانيه مصر من مجاعة وانفلات أمني وفساد

وأكوام قمامة؛ هي تعبير عن أزمة أخلاق ولن تصلحها السياسة وحدها؛ ولكن بأخلاق الشعب المنوط برجال الدين بنائها. فتحية لمن التزم بالمنهج من الدعاة، وحسرة على من اتبع السياسة وضل الطريق.

□ □ □ □